الرهائن السياسيون في عهد الأمير الحكم الأول (١٨٠-٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢٢م)

الرهينةُ البربري: أصبغ بن عبيد الله بن وانسوس

خلفَ الأمير هشام ابنه الحكم الذي تكالبت عليه الثورات منذ أوائل حكمه في سرقسطة ووشقة [١٤٧] ومدينة طليطلة ماردة [١٤٨] حيث واجه الأمير الحكم (١٨٠- ٢٠٦هـ/٧٩٦-٨٢١م) ثورة أصبغ بن عبيد الله بن وانسوس في سنة (١٩٠هـ/٨٠٥ - ٨٠٦م) في مدينة ماردة، التي كانت تضم أخلاطاً شتي من السكان منهم المولدون والمستعربون وطائفةٌ كبري من البربر، كانت تنزل بنواحي ماردة وإقليم غرب الأندلس فأصبحت مدينة ماردة مدينة الثورات في الغرب فكانت ترحب دوماً بالخارجين عن الحكومة المركزية [١٤٩].

تزعَّم هذه الثورة أصبغ بن عبد الله بن وانسوس، الذي كان قائداً للأمير، ويبدو أنه أرادَ التمتعَ بمزيدٍ من الاستقلال في إدارة المدينة، فساءت العلاقةُ بينه وبين حكومةِ قرطبة، وساعد على

(١٤٧) وشقة: بفتح أوله وسكون ثانيه والقاف، وهي من مدن الثغر الأعلى، بينها وبين سرقسطة خمسون ميلاً، ووشقة مدينة حسنة، لها أسواق عامرة وصنائع قائمة، وأحوازها تتصل بأحواز بربطانية، ووشقة بشرقي مدينة تطيلة وهي مدينة كبيرة أولية قديمة، واتصل ذلك من فعلهم سبعة أعوام والنصارى في القصبة القديمة محصورون، فلما طال عليهم الحصار استأمنوا لأنفسهم وذراريهم، فمن دخل في الإسلام ملك نفسه وماله وحرمته، ومن أقام على النصرانية أدي الجزية، فليس بوشقة من أهلها المتأصلين رجل ينتهي إلى أصلٍ صحيح من العرب، وتمكنت قوات أرجون من احتلال مدينة وشقة سنة (٤٨٩هـ/١٠٩٦م) ؛ العذري: نصوص عن الأندلس، ص ٥٥، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص ٣٧٧؛ السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص ٢٤٥.

(١٤٨) ابن سعيد: المغرب في حلي المغرب، ج١، ص ٤٠؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٦٩؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ١٢٦.

(١٤٩) حمدي عبد المنعم: ثورات طليطلة، ص ٤٠ ؛ حمدي عبد المنعم: ثورات البربر، ص ٣٥.

هذا أن بعض أعدائه أوقع بينه وبين الأمير الحكم (١٥٠) وسرعان ما وافق أهلُ مدينة ماردة أصبغ بن عبيد الله بن وانسوس على الثورة ضدَ الأمير الحكم وأخرجوا عامله فخرج الأمير الحكم إلى قتاله، ولكنه لم يلبث أن قفل عائداً إلى قرطبة عندما بلغه نشوب بعض القلاقل بها، وترددت البعوث والحملات بعد ذلك إلى ماردة لإخماد ثورتها، ولكنَّ زعيمها أصبغ ظل تمرده سبعة أعوامٍ، وكان قوي الشخصية شديدَ البأسِ استطاع أن يجذبَ إليه الأنصار من بربر ماردة، فالتفوا حوله وأصبحوا لكثرتهم قوةً هائلةً كانت السبب في إطالة أمد ثورته، ولم يزلْ أهل ماردة تارة يطيعون ومرة يعصون إلى سنة (١٩٢هـ/٨٠٧م) فضعف أمر أصبغ لأن الحكم تابعَ إرسال الجيوش إليه واستعمال جماعةً من أعيان أهل ماردة وثقاته من أصحابه فمالوا إليه وفارقوا أصبغ حتى أخوه، فتحير اصبغ وضعفت نفسه ولكنه أضطر أخيراً إزاء حزم الأمير الحكم وصرامته إلى طلبِ الصلح والأمانِ، فأجابه الأميرُ الحكم إلى طلبه، فعادت ماردة إلى الطاعة، وأشترط الحكم بن هشام على أصبغ بن وانسوس أن يسكن قرطبة، ثم سمح له بعد ذلك بتفقد ضياعه وأملاكه بماردة(١٥١)

أصبح العفو على أصبغ مرهوناً بتركِ مدينةِ ماردة والبقاء في قرطبة، وكان هدفُ الأمير الحكم من ذلك هو ألا يجتمع أصبغ بن عبيد الله بأنصاره فيكرر الثورة مرة أخرى وخصوصاً أنه استطاع مواجهة الأمير الحكم لمدة سبع سنواتٍ متواصلة، وأراد الحكم أيضا أن يحرم العناصر البربرية الناقمة على الحكم الأموي في مدينة ماردة من أي قيادة تجتمع حولها، و أن يبقي أصبغ بن عبيد الله تحت عينه رهينة في قرطبة، ونتيجة لانشغالِ الأمير الحكم بثورة مدينة

(١٥٠) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٧٢ ؛ السامرائي وآخرون: تاريخ العرب، ص ١١٧.
(١٥١) ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٣٤٥، ٣٤٦؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٣، ص ٢١٥ ؛ ابن خلدون: تاريخه، ج ٤، ص ١٦٢-١٦٣؛؛ حمدي عبد المنعم: ثورات البربر، ص ٣٣، ٣٤.

ماردة شن ألفونسو الثاني الغارات على أطراف الثغور(١٥٢) وعبر نهر دويرة(١٥٣)، وسار حتى قلمرية(١٥٤) وأشبونة(١٥٥) في البرتغال الحالية وعاث في تلك المنطقة وخربها، فرد الحكم بأن سار بنفسه سنة (١٩٤هـ/٨١٠م) وغزا بلاد الأعداء واستعاد المدن المغتصبة(١٥٦).

رهائن مـــدينـة طـــليطلـة:

تكررتْ ثوراتُ مدينةِ طليطلة ضدَ الأمير الحكم الذي استخدمَ تجاههم الحيلة والقسوة والعنف، وبالرغم من نجاحه في قتلِ أغلب أعيان المدينة بعد واقعة الحفرة (١٥٧) إلا أن أهل المدينة عادوا إلى شق عصا الطاعة بعد ثماني سنوات من واقعة الحفرة سنة(١٩٩هـ/٨١٤م) (١٥٨)

(١٥٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٧٣.

(١٥٣) نهر دويرة: (duero) ويسمي بنهر دورو و هوأحد أنهار أسبانيا الكبري ويصب في المحيط الأطلسي عند مرفأ (بورتو porto) ويعد نهر دورو أطول نهر يعبر البرتغال، بطول يبلغ ٣٢٠كم.

http://www.arab-ency.com/index.php?module=pnEncyclopedia&func=display_term&id=159276&m=1

(١٥٤) قلمرية: بضم أوله وثانيه وسكون الميم وكسر الراء وتخفيف الياء من بلاد برتقال، بينها وبين قورية أربعة أيام،وهي على جبل مستدير، وعليها سور حصين، ولها ثلاثة أبواب، وهي في نهاية من الحصانة؛ وهي صغيرة متحضرة عامرة كثيرة الكروم والتفاح والقراســـيا؛، وبين قلمرية وشـــنترين ثلاث مراحل، وبينها وبين البحر اثنا عشـــر ميلاً؛ الحموي: معجم البلدان، ج٤، ص٣٩١؛ الحميري: الروض المعطار، ص٤٧١.

(١٥٥) أشبونة: لشبونة بالفتح ثم السكون وباء موحدة وواو ساكنة ونون وهاء ويقال أشبونة بالألف، يتصل عملها بأعمال شنترين وهي مدينة قديمة قريبة من البحر غربي قرطبة وفي جبالها التبرات الخلص ولعسـلها فضـل على كل عسـل وهي مبنية على نهر تاجه والبحر قريب منها وبها معدن التبر الخالص ويوجد بسـاحلها العنبر الفائق وقد ملكها الأفرنج في سـنة (٣٧٥هـــ/٩٨٥م) ؛ الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص١٦؛ الحميري: الروض المعطار، ص٦١.

(١٥٦) خليل السامرائي: تاريخ العرب، ص ١٤٢.

(١٥٧) واقعة الحفرة: كانت في سنة (١٩١هـــ/٨٠٦م) حيث أوقع الحكم بأهل طليطلة، فقتل منهم ما يزيد على خمسة آلاف رجل من أعيان أهلها ؛ لمزيد من التفاصـــيل عن واقعة الحفرة أنظر: ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٩٩ -١٠٠ ؛ ص ابن الأثير: الكامل، ج ٥، ص ٣٤٤ ؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٣، ص ٢١٤، ٢١٥؛ ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص١٦٢؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ٢٤٠.

(١٥٨) ابن سعيد: المغرب، ج١، ص ٤١؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٧٤.

وبهذا لم يكن أمام الأمير الحكم بن هشام إلا أن يتوجه بنفسه إلى طليطلة لإخضاعها، وأن يكون الأمر بغتةً وذلك حتى لا يعلم أهلها به فيتحصنوا داخلها فيطال عليه الأمر (١٥٩).

قرر الأميرُ الحكمُ أن يتحايل، وذلك بأن يظهر الخروج إلى غيرها وحين تأتى ه الفرصة يدخل مدينة طليطلة دون أدني مجهود، فتوجه إلى مدينة تدمير وأخذ يحارب الحصون المخالفة له، ثم أرسل كتابه إلى عمال الثغر بنزوله عليها وحربه لأهلها، وفي هذا الوقت أمن أهل طليطلة فخرجوا إلى مصالحهم وعادوا لحياتهم الطبيعية، وهذه الأمور لا تخفي على الحكم حيث أقام بطليطلة من يأتي ه بأخبارها، وبعلم الحكم بحال المدينة ثم بدأ في التوجه غرباً نحوها وعندما حانت له الفرصة توجه إليها مسرعا ودخلها ليلا في غفلة من أهلها وقطع الصلة بينها وبين من كان خارجها، وبنجاح الحيلة بدأ في معاقبة أهل طليطلة فأنزلهم من الجبال إلى السهل وقام بإحراق ديارهم وأسكنهم لفترة في الصحراء ثم أعادهم إلى طليطلة(١٦٠).

وقبل خروج الأمير الحكم من مدينة طليطلة اصطحب عدداً من أعيانها ووجهائها رهائن عنده في قرطبة (١٦١) ولم تذكر لنا المصادر أي معلومات عن هؤلاء الرهائن وطريقة معاملتهم ولم تمدنا حتى بأسماء هؤلاء الرهائن إلا هشام الضراب وهو أحد وجهاء مدينة طليطلة ممن آخذهم الأمير الحكم إلى قرطبة في عام (١٩٩هـ /٨١٤ م) واكتسب هشام لقب الضراب حيث كان يعمل لدي الحدادين أجيرا يضرب بالمعول على الحديد (١٦٢).

(١٥٩) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٤٧٤؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص٢٤٢.
(١٦٠) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٤٧٤؛ عبد الله عنان: دولة الإســـلام،ج١، ص٢٤٢؛ حمدي عبد المنعم: ثورات طليطلة، ص٥٠.
(١٦١) ابن سعيد: المغرب، ج١، ص ٤٤١؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٨٣.
(١٦٢) ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٤٩٣ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٨٣ .

هل يكون الأميرُ الحكم قد أراد إذلال وجهاء مدينة طليطلة ففرقهم بين أصحاب الحرف نكاية بهم وإذلال لهم، ولم يعرضهم للسجن!

أو أن الأمير الحكم قصد بأخذهم إلى قرطبة أن يكونوا منفيين، ويكونوا بعيدين عن موطنهم وأهلهم في طليطلة وتنطبق عليهم أحكام النفي فبدأ كل واحدٍ من هؤلاء الرهائن بالبحث عن مهنةٍ!، أو أن الأمير الحكم قصد من اتخاذ وجهاء مدينة طليطلة رهائن عنده أن ينقل إقامتهم نهائيا من طليطلة إلى قرطبة وذلك حتى تحرم المدينة الثائرة من قيادتها ويكون هؤلاء الرهائن تحت عينه.

وفي هذه المسألة نأخذُ قصةَ هاشم الضراب لنقيسَ عليها حالَ الرهائن الباقين.

أصبحَ هشام الضراب يعمل أجيراً عند أحد الحدادين، بعد أن كان من وجهاء مدينة طليطلة (١٦٣)،

فحالُ هشام الضراب ينطبق على حال باقي الرهائن، ومن المحتمل أن الأمير الحكم أراد من اتخاذ وجهاء مدينة طليطلة رهائن لكي يحقق عدداً من الأهداف:

وهي: أن يكون الزعماء الثائرون المحركون للثورة في طليطلة تحت عينيه في قرطبة، وأن يحرمَ المدينة الثائرة من قيادتها، وأنه رغب في إذلالِ هذه القيادات بالعمل بالأجرة في قرطبة نكاية فيهم ومبالغة في إذلالهم، ولم يقوم بسجنهم في قرطبة ومن المحتمل أن الأمير الحكم جعل رقابة على هؤلاء الرهائن، حيث أن هاشم الضراب خرج من قرطبة مستغلاً ثورة الربض وانفلات زمام الأمن وأنه لم يقم بأي ثورة إلا بعد وفاة الأمير الحكم.

(١٦٣) ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص٤٩٣ ؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص٨٣ ؛ النويري: نهاية الأرب، ج٢٣، ص ٢٢٢؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص٢٥٨.

حيث تخبرنا المصادر: أن هاشم الضراب لم يدم بقاؤه بقرطبة، حيث أنه عاد إلى طليطلة [١٦٤] فيبدو أنه عاد إلى طليطلة مستغلاً اضطراب الأمور في قرطبة بعد حادثة الربض سنة (٢٠٢ هـ/٨١٨م) [١٦٥] وما يؤيد ذلك: الخبر الذي أورده ابن خلدون الذي اختلط عنده الأمر فيذكر أن هاشم الضراب من أهل واقعة الربض وأنه خرج لمدينة طليطلة [١٦٦] وثارَ في سنة (٢١٤ هـ/ ٨٢٩م) أي أنه مكث حوالي اثنتا عشرة سنة حتى قام بثورته، وأنه مكث طيلة هذه السنوات مختبئا خائفا من سطوة الأمير الحكم وأنه ثار بعد تولية الأمير عبد الرحمن الأوسط بحوالي ثماني سنوات [١٦٧].

(١٦٤) ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٤٩٣، ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٨٣، النويري: نهاية الأرب، ج٢٣، ص ٢٢٢، عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص٢٥٨.

(١٦٥) واقعة الربض:لمزيد من التفاصيل عن واقعة الربض ينظر: مجهول: أخبار مجموعة، ص ١١٦؛ ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٦٨، ٦٩؛ ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٤١٣، ٤١٤؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج١، ص٤٤– ٦٤؛ ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٧٥ -٧٧، ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ١٦١، ١٦٢؛ المقري: نفح الطيب، ج١، ص٣٣٩؛ عبد الله عنان: دولة الإسلام، ج١، ص ٢٤٣ – ٢٤٨؛ آنخل جنثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٥٥م، ص٣، ٤.

(١٦٦) ابن خلدون: تاريخه، ج٤، ص ١٢٨.

(١٦٧) ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٨٣.